

قراءة في تاريخ الإسلام في نيجيريا



تيجاني زبير رابع

قراءة في تاريخ الإسلام في نيجيريا

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فكثيرٌ مما عرف في تاريخ إفريقيا كان عن طريق أكاذيب المستعمر الأوربي؛ ولذا كانت معلومات الناس في مختلف أنحاء العالم عن الإسلام في نيجيريا محتوية على كثير من المغالطات، فمن الجدير بالذكر كشف الغبار عن حقيقة الإسلام في نيجيريا، وفي غرب إفريقيا عمومًا؛ لدحض هذه الشبهات والأكاذيب، وإن إفريقيا هي القارة الإسلامية الأولى في العالم، نظرًا لنسبة المسلمين فيها؛ إذ إن عددهم يبلغ اثنين وخمسين بالمائة من جملة ساكني القارة، وقد قسمت الورقة إلى أربعة مباحث بعد مقدمة وتمهيد ثم الخاتمة.

تحدث الباحث في التمهيد عن أصل التسمية النيجيرية، ومساحتها، وموقعها الجغرافي، وطبيعة أراضيها ومناخها.

المبحث الأول: خلفية تاريخية عن الممالك القديمة في نيجيريا، والمبحث الثاني: دخول الإسلام في غرب إفريقية وظهوره في نيجيريا، والمبحث الثالث: الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي (دولة سكوتو)، والمبحث الرابع: دخول الأوربيين المستعمرين.

والله تعالى أسأل أن يوفقني إلى الصواب، ويجنبني الزلل في القول والعمل، إنه سميع مجيب الدعوات، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التمهيد: التسمية النيجيرية ومساحتها وموقعها الجغرافي وطبيعة أراضيها ومناخها

أولاً: التسمية: الجمهورية النيجيرية الاتحادية:

اشتق اسم نيجيريا الحالية من النهر الفيض الممتد من أراضي جمهورية مالي وجمهورية النيجر، وتوسط أعماق دولة نيجيريا، فسميت باسمه.

وكان نيجر مأخوذ من (نيغرو) ١، بمعنى: الزنجي الأسود، فأطلق هذا الاسم على النهر المنسوب إليه، فأصبح نهر (نيغرو)؛ أي: نهر (نيجر).

ويرى بعض المؤرخين أن الإسبان ثم الإفرنج هم الذين أطلقوا على نيجيريا هذا الاسم، وتعرف هذه المنطقة عند العرب باسم بلاد السودان، أو بلاد التكرور، ويقول محمد بللو بن عثمان فودي ٢: "ورأينا لبعضهم أنه عبر عن كنو وكثته وما والاها ببلاد السودان..."، إلى أن قال: إن هذا الاسم التكرور عُلِمَ على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله، حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً، وإنما ينقلونه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين ومصر ٣.

ثانياً: مساحة الأرض:

تغطي نيجيريا منطقة من ٩٢٣،٧٦٨ كيلومتراً، يقاس عرضها بحوالي ألف ومائتين ١٢٠٠ كيلومتر من الشرق إلى الغرب، وحوالي ألف وخمسين ١٠٥٠ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب.

فالنهر النيجيري اخترق البلاد من الناحية الشمالية الغربية، والنهر الآخر نهر بينوي اخترقها من الناحية الشمالية الشرقية، فأصبح النهران يجتمعان في وسط نيجيريا في بلدة لكوجا (Lokoja)، ويشكل ذلك شكلاً لخرطوم الفيل، أو حرف Y الإنكليزي، كما الحال في خرطوم السودان، ثم

^١ وهي كلمة لاتينية، معناها: الزنجي الصغير، والأسود القصير، لقد أطلقتها أمم قديمة على سكان غرب إفريقيا وأستراليا.

^٢ هو: محمد بللو بن عثمان بن محمد بن عثمان بن فودي، أمير المؤمنين بعد وفاة أبيه الشيخ عثمان بن فودي، صاحب كتاب: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ولد سنة ١١٩٥ هـ، وتوفي سنة ١٢٥٣ هـ، وكان مدة خلافته إحدى وعشرين سنة.

^٣ انظر: محمد بللو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طبع عام ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٤ م ص ٢٨.

يجريان وينسكبان في المحيط الأطلسي على ضفاف نيجر ديلتا (Delta) ١، وانظر إلى الخريطة رقم ١ في ملحق الصور، في آخر البحث.

ثالثاً: موقعها الجغرافي: وتقع جمهورية نيجيريا في الساحل الغربي لإفريقيا، على طول المحيط الأطلسي في خليج غينيا، ما بين ٤ و٤١ شمالاً من درجة ٣٠ من خطوط العرض أسفل خط الاستواء، تحدها شمالاً بلاد (نيجر)، وشرقاً بلاد: تشاد وجمهورية الكاميرون، وغرباً جمهورية بنين، وجنوباً المحيط الأطلسي.

ونيجيريا من أشهر الأقطار التي تنتج قسطاً كبيراً من المنتجات العالمية، فريدة في نظامها، وأغلب المقاطعات في نيجيريا متوجة بالأهوار، خصوصاً منطقة نيجر نهر بينوي Benue ٢.

وتعد نيجيريا أكبر بلد إسلامي من الناحية العددية في إفريقيا، وأكثر من خمس وثلاثين في المائة من ساكني القارة الإفريقية من أهالي نيجيريا.

رابعاً: طبيعة الأراضي النيجيرية (السطح والمناخ).

أ - السطح؛ أي: المناطق الجغرافية، ويمكن تقسيمها إلى عشر مناطق، هي:

١ - سهول سكوتو ٣.

٢ - حوض تشاد ٤.

٣ - السهول الشمالية العالية ١.

^١ انظر: الموسوعة العربية العالمية، (نيجيريا).

^٢ انظر: توفيق حسين أبو بكر: جمهورية النيجيرية، بحث غير منشور. ص 1.

^٣ سهول سكوتو: تقع سهول سكوتو في الجزء الشمالي الغربي من نيجيريا، وهناك عدة أنهار تجري عبر هذه السهول المنخفضة المسطحة، وتغمرها بالفيضانات خلال موسم الأمطار، تقوم هذه الفيضانات بتسيب التربة الخصبة التي تمكّن المزارعين من زراعة المحاصيل المختلفة، ولكنها قد تسبب تدمير المنازل والحقول أحياناً.

^٤ حوض تشاد: يمتد حوض تشاد عبر الجزء الشمالي الشرقي من نيجيريا، جنوبي وغربي بحيرة تشاد، وتوجد كثبان رملية مستطيلة، تمتد عبر أجزاء الحوض المنخفض، وخلال موسم الأمطار تتحول بعض أجزاء المنطقة إلى مستنقعات، ولكن قد تمر فترات طويلة لا تهطل فيها أية أمطار، مما يسبب موجات خطيرة من الجفاف في المنطقة، وتتكون النباتات التي تنمو في هذه المنطقة من حشائش قصيرة وشجيرات متفرقة.

- ٤ - هضبة جوس ٢.
- ٥ - حوض نهر النيجر - بنيو ٣.
- ٦ - المرتفعات الغربية ٤.
- ٧ - المرتفعات الشرقية ٥.
- ٨ - السهول الجنوبية الغربية ٦.
- ٩ - الأراضي المنخفضة الجنوبية الشرقية ١.

^١ السهول الشمالية العالية: تغطي السهول ما يقرب من ٢٠% من المساحة الكلية لنيجيريا، ويصل ارتفاع معظم السهول إلى ٧٦٢م فوق سطح البحر، وتشكل السهول الشمالية العالية، المنبع لعدد من فروع نهر النيجر؛ كأفهار الغونغولا (Gwangola)، والسكوتو (Sokoto)، وهي تتدفق بحدوء عبر السهول، وتشكل شلالات جميلة، وقد تهي إلى الأحاديث العميقة في بعض أجزاء المنطقة.

^٢ هضبة جوس (JOS): تقع هضبة جوس قرب أواسط نيجيريا، وهي ترتفع بحدة عن مستوى السهول المجاورة، وترتفع بعض أجزاء المنطقة إلى أكثر من ١٠٥٠٠م فوق سطح البحر، وتربى أبقار الحليب فوق الأراضي المعشبة على الهضبة، كما توجد مناخم قصدير مهمة في المنطقة.

^٣ حوض نهر النيجر (Niger). بنيو: يشكل حوض نهر النيجر - بنيو - قوسًا يمتد عبر أواسط نيجيريا من الشرق إلى الغرب، ويجري نهر النيجر باتجاه الجنوب الغربي من بنين عبر الجزء الأوسط الغربي من نيجيريا، يتلاقى النهران قرب أواسط القطر، ويندفعان معًا نحو دلتا (Delta) النيجر، تغطي الأراضي العشبية وغابات النخيل وسهول المستنقعات أجزاءً من الوادي، أما المناطق الأخرى فتغطيها تلال صخرية وعرة.

^٤ المرتفعات الغربية: تقع المرتفعات الغربية التي تعرف أيضًا باسم هضبة أرض اليوروبا (Yoroba) في الجزء الغربي من أواسط نيجيريا، على ارتفاع يتراوح ما بين ٣٠٠م و٦١٠م فوق سطح البحر، وتغطي السهول المعشبة الأراضي المرتفعة، وتكون تلالاً شبيهة بالقباب.

^٥ المرتفعات الشرقية: تقع المرتفعات الشرقية على الحدود الشرقية لنيجيريا، وهي تتكون من هضاب، وجبال، وتلال صخرية منخفضة، ترتفع معظم المنطقة إلى ما يزيد على 200،1م فوق سطح البحر، وهي أعلى نقطة في نيجيريا إلى ٢٠٤٢م فوق سطح البحر.

^٦ السهول الجنوبية الغربية: تتكون السهول الجنوبية الغربية من منطقة غابات كثيفة، تنحدر تدريجيًا باتجاه الشمال في خليج غينيا، الذي يشكل ذراعًا من المحيط الأطلسي، وتغطي المستنقعات والبحيرات الضحلة جزءًا كبيرًا من المنطقة الساحلية، وتحتل لاجوس (Lagos) العاصمة السابقة عدة جزر في بحيرة لاجوس.

١٠ - دلتا النيجر ٢.

^١ الأراضي المنخفضة الجنوبية الشرقية: تماثل الأراضي المنخفضة الجنوبية الأجزاء الأخرى في جنوبي نيجيريا، وتغطي معظم المنطقة مستنقعات وسهول مغطاة بالغابات، أما الجزء الشمالي الغربي من المنطقة فهو هضاب شديدة الانحدار، ترتفع إلى ما يقرب من 300م فوق سطح البحر.

^٢ دلتا النيجر: تحتل دلتا النيجر المنطقة الجنوبية من نيجيريا على خليج غينيا، وتتكون من رواسب من الطين والصلصال والرمل عند مصب نهر النيجر، وتغطي البحيرات الضحلة ومستنقعات المانجروف^٣ جزءاً كبيراً من المنطقة.

* المعادن: يوجد في نيجيريا غزارة في المعادن الصلبة، وتتراوح من أحجار المعادن الثمينة المختلفة إلى معادن صناعية، مثل: جبس ١، ورخام ٢، والحديد الخام ٣، وبتونيت، وباريت ٤، والذهب ٥، والقار ٦، والفحم ٧، والملح الصخري، والأحجار الكريمة ٨، والكاولين ٩، وغير ذلك، وأغلب هذه المعادن إلى الآن لم يتم استخراجها بشكل إحصائي؛ فمستوى استغلال هذه المعادن منخفض جداً، ويحتاج إلى استثمارات أجنبية ١٠.

^١ الجبس: مهم جداً في إنتاج الإسمنت، ويستعمل أيضاً لإنتاج لصقة باريس (P. O. P)، والطباشير، فمصانع الإسمنت حالياً تنتج فقط ٨ مليون طن سنوياً، بينما المتطلب الوطني ٩,٦ مليون طن، ويوجد حوالي بليون طن من إيداعات الجبس منتشرة في كثير من الولايات، توفيق حسين، جمهورية النيجيرية. ص ٥.

^٢ الرخام: صخر يستخدم كثيراً في الأبنية والآثار وفن النحت، ويتكون أساساً من الكلسيت، أو الدوليت، أو مزيج من تلك المعادن الكربونية.

^٣ هناك أكثر من ٣ بليون طن متري من الحديد الخام في الإيداعات موجود في ولاية كوجي، الحديد الخام ينقب في إتاكب في ولاية كوجي بحدود ٦٧ بالمائة من الحديد، والمصانع الحديدية النيجيرية في "الأدجا" و"أجاوكوتا" لا زالت جاهزة لاستقبال ذلك، واستعماله للاستهلاك الداخلي.

^٤ هذه المعادن هي الطينة الرئيسية في حفر آبار النفط، باريت الناجيري يزن حوالي ٤,٣، ويوجد أكثر من ٧,٥ مليون طن منه في ولاية تارابا، أما البنتونيت فمتوفر في العديد من ولايات الاتحاد، جاهز للتطوير والاستغلال الهائل، ويوجد حوالي ٧٠٠ مليون طن، كما أفادت الموارد من وزارة المعادن النيجيرية.

^٥ يوجد الذهب من نوعي primary و alluvial، أثبتت التشخيصات تمركزه في المناطق الوسطى للبلاد، ويوجد نوع من الاستخراج على مستوى ضيق من الحليين.

^٦ يوجد الإيداعات من هذا النوع حوالي ٤٢ بليون طن، وهو تقريباً يزن بكمية مرتين من الإيداعات النفطية الخام، تقترح النتائج التحليلية بأن هذا المورد يمكن أن تستعمل مباشرة في صناعة الأدوات الرخامية، بتحويل تعميم الطرق في نيجيريا إلى شكل مرضي؛ ذلك لأن البلاد حالياً تستورد كل هذه المعادن من الخارج.

^٧ يتمتع الفحم النيجيري بجودة عالية، بسبب كبريته المنخفض، وقلة إحداث الرماد، الأمر الذي جعله مناسباً للبيئة، يوجد حوالي ٣ بليون طن، أشارت الاحتياطات إلى أن في الوقت الراهن يوجد ١٧ حقل فحم على المستوى المحلي، وأكثر من ٦٠٠ مليون طن مودع في مناطق أخرى في بلاتو وبينوي وبورتهاركورت.

^٨ يوجد الكثير من الأحجار الكريمة في كثير من المناطق النيجيرية؛ كالياقوت، والزمرد، وزرجد، والعقيق، وغير ذلك من الأحجار الكريمة الجيدة النوع، والاستثمارات في هذا المجال لا زالت مطلوبة.

^٩ هناك تخمين ل: ٣ بليون طن من طين kaolin tic الجيد المميز في العديد من النواحي في نيجيريا.

^{١٠} انظر: توفيق حسين: جمهورية النيجيرية. ص ٤.

وهناك فرص كبيرة للاستثمارات في القطاع المعدني الصلب؛ فالحكومة تنادي المستثمرين (محلي وأجنبي) للمشاركة في استغلال الموارد المعدنية الواسعة في نيجيريا، وهي مستعدة لمنح الرخص في هذه المجالات.

ب - المناخ: يسود المناخ المداري معظم أنحاء نيجيريا، وهو دافئ في معظم أوقات السنة، غير أن المناطق الشمالية أكثر حرارة وجفافاً من المناطق الجنوبية، ويبلغ متوسط درجة الحرارة في الشمال نحو ٢٩م، إلا أن درجة الحرارة اليومية قد تصل إلى ٣٨م، أما متوسط درجات الحرارة في هضبة جوس في أواسط نيجيريا والمرتفعات الشرقية فأقل بكثير، وذلك بسبب الارتفاع الشديد عن مستوى البحر ١.

يبلغ المتوسط السنوي لدرجات الحرارة في الجنوب الرطب نحو ٢٧م، وبالنسبة للأمطار فإن الجنوب يتلقى نسبة أكبر من المطر من الشمال، ويبلغ المتوسط السنوي للمطر نحو 381 سم في المناطق الساحلية، ويستمر موسم سقوط الأمطار من إبريل حتى أكتوبر، في معظم مناطق نيجيريا، غير أنه يستمر لمدة أطول في جنوب البلاد.

ومناخ نيجيريا مناخ استوائي، مع مراعاة الخلافات الإقليمية اليسيرة، وكيفية نزول المطر، تراعي الفصول النيجيرية حركة نظام tropical inter؛ حيث يهب هواء رطب دافئ من الأطلسي، ويتلاقى مع هواء حار جاف، ويجري هناك تليقح من هواء الصحارى المعروف محلياً harrmattan أثناء الصيف.

أكثر البلاد يقع تحت تأثير الرطوبة، وهواء بحري استوائي، هكذا معظم البلاد يواجه فصلاً ممطراً أثناء الصيف، درجات الحرارة عالية على مدار السنة، تتراوح من ٢٥ ° إلى ٢٨ °، وفي الارتفاعات الأعلى لهضبات جبال جوس، تتلاقى أشد درجات الحرارة في الشمال النيجيري؛ أكثر من الجنوب؛ إذ تصل إلى ٣٨ درجة ٢.

يتفاوت نزول المطر على نحو واسع بين المسافات والمناطق، ومن سنة إلى سنة؛ فمعظم المناطق الساحلية على طول دلتا النيجر، حيث إن الفصل ممطر طول العام، ويستلم أكثر من ٤٠٠٠ مليمتر من المطر كل سنة، وأغلب المناطق في وسط نيجيريا يبدأ الفصل الممطر في إبريل/نيسان أو

^١ الموسوعة العربية العالمية (نيجيريا).

^٢ انظر: توفيق حسين: جمهورية نيجيريا. ص ٨.

مايو/مايس، ويمر عبر سبتمبر/أيلول، أو أكتوبر/تشرين الأول، يستلم من ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠
مليمتر (٤٠ إلى ٦٠ قدمًا)، ضمن هذه المنطقة، وتستلم هضبات جوس مطرًا أكثر بعض الشيء
إذا قارنته بأقصى الشمال، بسبب ارتفاعه الأعلى، في مناطق السهل العشبي الجافة، بأمطار متغيرة
خصوصًا المنطقة على طول حدود نيجيريا الشمالية الشرقية تستلم أقل من ٥٠٠ مليمتر (٢٠
قدمًا) من المطر بالسنة، ويدوم الفصل الممطر بالكاد ثلاثة شهور فقط.

تختلف النباتات أيضًا بشكل مثير في كل المستويات المحلية؛ وذلك لتغير المناخ، والتربة، والارتفاع،
والتأثيرات الإنسانية على البيئة.

المبحث الأول: خلفية تاريخية عن الممالك القديمة في نيجيريا:

فمنذ آلاف السنين استوطن الإنسان المنطقة التي تعرف بنيجيريا الآن، وقد اكتشف علماء الآثار أدوات حجرية يربو عمرها على ٤٠,٠٠٠ سنة^١، ووجدت أيضاً هياكل بشرية، وبعض مخلفات المستوطنات البشرية التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ.

وكانت الثقافة قبل الإسلام ثقافة يحكمها فكرٌ وثنيٌّ، بنيت مقولاته على مسلمات ديانات وضعية، حالياً من القيم العقلانية أو المادية المؤثرة؛ فهي تفسر ظواهر الكون وفق رؤى الإنسان البدائي^٢.

ولما كانت هذه هي الثقافة القومية، فهي بالتالي لم تكن تعرف أصوليات التعليم المدرسي، وإنما كانت قناة التعليم الوحيدة بها المنهج البيئي، أو نظام الاقتداء الحرفي بالراشدين على سبيل التلمذة الصناعية.

ونظام الحكم نظام أرستقراطي بحت؛ إذ يتوارث الحكام مناصبهم كابراً عن كابر، وزمام الأمر بيد الملوك، ويعاونهم أمتاؤهم من كبار مواليتهم المخلصين لهم، ومن رؤساء جنودهم الحارسين لمملكتهم، ومن كهنتهم المشيرين لحركاتهم، أما القضاة فكبير كل عائلة قاضيها، ورئيس كل قبيلة حاكمها، وقاضي القضاة هو الملك الذي يعتبر نفسه نائباً عن الله في أرضه، ولكل كبيرٍ ورئيسٍ حق سماع القضايا الصغرى في ناحيته وولايته الخاصة، أما القضايا الكبرى فإنها ترفع إلى مجلس الملك، فيجتمع الأعيان لسماعها، والنظر فيها، وليس لهم قانون مدون في كتاب، إنما يحفظون في صدورهم ما يتوارثونه عن أسلافهم من تقاليد وعادات^٣.

أما العقوبات فأولها القتل لمن قتل نفساً بغير حق، أو كان لصاً محارباً، أو حائناً للوطن، أو مخالفاً لأمر السلطان على سبيل الاستفزاز، ثم النفي، وهو جزاء من استحق القتل من العظماء الذين يخشى من قتلهم الفتنة، ثم الغرامة، وهو جزاء من زنى بامرأة محصنة متزوجة، فيؤخذ ما يعدل ثلث المهر الأصلي على المرأة، ويسلم إلى الزوج الشرعي، تعويضاً له عن التمتع والتلذذ بزوجته، والرهن

^١ انظر: الموسوعة العربية العالمية (نيجيريا).

^٢ (شبربرا) عند الهوسا، و(جوجو) عند اليوروبا، وعند إيو.

^٣ انظر: الوري: آدم عبدالله، الإسلام في نيجيريا، الطبعة الثانية ١٩٧٨م، ص ٧٣ - ٧٤.

هو ما يجسه المديون لدائنه، كأن يجبس عنده ولده ليستغله حتى يدفع ما عليه من الدين عاجلاً أو آجلاً^١.

ومن أهم الممالك بالمنطقة قديماً:

أولاً: مملكة كانم، وهي دولة قديمة نمت في شرقي بحيرة تشاد، وهي الدولة التي عرفت فيما بعد بدولة البرنو، عندما انتقلت إلى غربي بحيرة تشاد، وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المراعي بين نهري النيجر والنيل.

يرجع أصل شعب هذه الدولة إلى الهجرات المختلفة لغربي إفريقيا، من البربر والزغاوة، في الفترة بين سنتي ١٨٤ - ٦٤٨هـ، ٨٠٠ - ١٢٥٠م.

وتعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق المثلثين، ومثلها من التبو والتيدا، ويرجع ملوك هذه الأسرة نسبهم إلى سيف بن ذي يزن الحميري؛ ولذا عرفت بالأسرة السيفية.

وصلت برنو قمة مجدها وتوسعتها في عهد الماي إدريس علومه (ألوما)، وسارت الدولة في عهد خلفائه (أبنائه الثلاثة)، بقوة الركائز التي وضعها والدهم، وجاء من بعدهم علي بن عمر (١٠٥٥ - ١٠٩٦هـ، ١٦٤٥ - ١٦٨٥م)، وحافظ على ميراث جده إدريس، وظهر الضعف في خلفائه، إلى أن داهمهم الشيخ عثمان بن فودي نتيجة للموقف العدائي الذي وقفته منه برنو، وكادت الدولة تسقط في يد الشيخ عثمان بن فودي لولا السياسة الجديدة التي انتهجها الشيخ محمد الأمين الكانمي، الذي تولى السلطة عندما استعان به سلطانها، وظل حكم برنو في أسرة الكانمي إلى أن دخل رابع بن فضل الله الزبير البلاد سنة ١٣١١هـ، 1893م، واستولى على السلطة، إلى أن قتله المستعمرون الفرنسيون عام ١٣١٨هـ، ١٩٠٠م، وناضل من بعده ابنه فضل الله حتى غلبه الفرنسيون، وسقطت برنو في أيديهم سنة ١٣١٢هـ، 1901م^٢.

^١ نقلاً عن داود عبدالقادر إيليغا: الأنظمة التعليمية الوافدة إلى غرب إفريقيا وآثارها على المجتمع، ورقة مقدمة إلى ملتقى

الجامعات الإفريقية، تقيمه جامعة إفريقيا العالمية بالسودان، يناير ٢٠٠٦م، ص ٣.

^٢ الموسوعة العربية العالمية، كانم.

وهناك أسطورة شائعة بين أهالي تلك المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، تقول: إن هذه المنطقة هي نفسها الأرض التي عاش فيها سيدنا نوح عليه السلام؛ لذلك أطلقوا عليها اسم برنوه، ومعناها: أرض نوح في اللغة المحلية ١.

ثانيًا: دويلات هوسا: وفي القرن الحادي عشر الميلادي أسست قبائل الهوسا عدة دويلات في المنطقة الواقعة غربي برنو، وكل مدينة تتخذ شكل الدولة، وكان لبعض هذه الدويلات مثل: كانو، وكاتشنا علاقات تجارية مع أقطار في شمالي إفريقيا والشرق الأوسط، وفيما بعد أصبحت كانو (Kano) وكبي (Kebbi)، وبعض دويلات الهوسا الأخرى جزءًا من إمبراطورية صنغي ٢.

ثالثًا: مملكة إيف: وفي الجنوب قامت قبائل اليوروبا بإنشاء مركز ثقافي مهم بمنطقة إيف منذ عام 100م، وفيما بعد أنشأت مجموعات من اليوروبا في منطقة إيف دويلات في أجزاء مختلفة في المنطقة المجاورة، من أهمها: مملكة أويو (Oyo)، التي امتدت إلى ما يعرف الآن بدولة بنين (Benin) خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

١ انظر: THE PENGUIN ATLAS OF AFRICAN HISTORY BY COLIN MCEVEDY. كولن ماكيفيدي: الأطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة: مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧م ص ١٠٥.

٢ دولة صنغي (٧٣٧ - ١٠٠٠هـ، ١٣٣٦ - ١٥٩١م): من أطول الدول عمرًا في نيجيريا، بدأت بعض قبائل لمطة البربرية، وذلك في منتصف القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، واستطاع هؤلاء البربر أن يؤسسوا أسرة حاكمة ظلت تحكم البلاد حتى سنة ٧٢٦هـ، ١٣٢٥م من عاصمتها كوكيا، وقد عاصرت دولتي غانا ومالي، وبقيت بعدها دولة قوية إلى سنة ١٠٠٣هـ - 1594 م، تغلغل الإسلام وسط شعب هذه الدولة، وأصبح ملكها ضياء كوسوس مسلمًا في سنة ٤٠٠هـ، 1009 م، تولى السلطة فيما بعد ملك لا ينحدر من الأسرة المالكة، هو أسكيا الحاج محمد، الذي امتدحه مؤرخو الإسلام في غربي إفريقيا؛ فقد كان إمامًا تقيًا عادلًا محبًا للعلم والعلماء، ونشر الحضارة الإسلامية، وقد بدت الحركة التوسعية ظاهرة في عهده، وهو الذي أعلن الجهاد على مملكة الموشي الوثنية الواقعة جنوب بلاده، وتمكن من إخضاعها لسلطانه، وأخضع إمارات الهوسا، وكان ذلك بداية لظهور الثقافة الإسلامية في هذه الجهات، وبسط نفوذه غربًا إلى بلاد الماندينجو وال فولاني، وشمالًا حتى بلاد الطوارق، أخذت أركان هذه الدولة تتصدع بعد موت أسكيا محمد، وسارع سلطان مراكش للتدخل في شؤون هذه الدولة، ظنًا منه أن سبب قوتها وثروتها كان لوجود الذهب فيها، فأرسل حملة لإخضاعها له، وانتصر على صنغي في معركة توربي عسكريًا، وفشل في تحقيق أغراضه السياسية والاقتصادية، وكان سببًا مباشرًا في تقطيع أوصال الدولة، وأدخل البلاد في فوضى أكبر؛ ولذا قامت الثورات في البلاد، ولم تدخل سنة ١١٩٥هـ، ١٧٨٠م إلا وكانت دولة صنغي ذكرى من الذكريات، ووجد الاستعمار فوضى ضاربة سهلت عليه السيطرة على هذه المنطقة؛ انظر: الموسوعة العربية العالمية، (صنغي دولة).

المبحث الثاني: دخول الإسلام إلى غرب إفريقية وظهوره في نيجيريا:

دخل الإسلام إلى إفريقيا منذ القرن الأول، لما وطئت القارة أقدام مهاجري الحبشة رضي الله عنهم، ثم استقر الإسلام في بعض بلدانها إبان فتوحات المسلمين، ويمكن القول بأن دخول الإسلام في إفريقيا مر بمراحل ثلاثة.

المرحلة الأولى: من ٦٤٠ م إلى ١٠٥٠ م.

تم في تلك الفترة فتح شمال إفريقيا ودخولها في الإسلام، وفي بقاع امتد من ساحل البحر المتوسط شمالاً إلى السودان جنوبي الصحراء الكبرى.

وبالنظر إلى الحركات الإسلامية التي تدفقت من الشمال إلى الغرب، والتي امتدت من ممالك (غانا) و(مالي) و(أوداغشت)، فلا نشك في أن نفوذ الإسلام قد امتد إلى بلاد هوسا منذ وقت ظهوره وانتشاره المعروف ٢.

وكانت فتوحات إفريقيا على يد عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين للهجرة، وذلك لما فتحت مصر أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عمرو بن العاص، واستقر فيها، ولى على إفريقيا عقبة بن نافع، وتوسع عقبة نحو المغرب، وبنى القيروان؛ لتكون قاعدة للجند، وواصل فتوحاته إلى فزان وغدامس وكوار ٣، والأخيرة مدينة معروفة ببلاد غوير من أقاليم النيجر، ولا تبعد كثيراً عن حدود نيجيريا الحالية.

^١ الهجرة الأولى إلى الحبشة، كانت حينما رأى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثرة الاضطهاد على أصحابه، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة، هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، كان مكوّناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهما: ((إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام))، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار؛ انظر: المباركفوري صفى الرحمن: الرحيق المختوم ص ٧٤، وابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد: السيرة النبوية: الناشر، دار الجيل سنة ١٤١١ هـ - ١٦٨/١.

^٢ الوري: آدم عبدالله: الإسلام في نيجيريا، ص ٣٢.

^٣ انظر: شيخ عثمان كبر، الدكتور: الشعر الصوفي في نيجيريا، ص ٢٠، وإن فزان وغدامس تقعان الآن في ليبيا.

استمرت الفتوحات بعد هذا حتى انتشر الإسلام، ليس في إقليم هوسا فحسب، بل في كافة ربوع إفريقيا؛ وذلك بالجهود التي بذلتها الدول الإسلامية التي قامت في المنطقة، مثل: مملكة غانة، ومملكة مالي، ومملكة كانم برنو، وبجهود التجار المتجولون عبر طرق القوافل التي تخترق الصحراء الكبرى جنوباً؛ حيث ينتهي الطريق إلى برنو، وآخر ينتهي في كنو، وهذه الطرق تدل على العلاقات التجارية القديمة بين هذه المناطق وشمال إفريقيا، الأمر الذي أدى إلى نشر الإسلام في هذه المنطقة.

إن من أهم ما تتسم بها منطقة غرب إفريقيا وجود الطرق المتعددة الموصلة إليها من زمنٍ بعيدٍ، الأمر الذي جعل الناس يأوون إليها رجالاً وركباناً على حسب أصولهم، ومختلف عروقهم ولغاتهم وألوانهم، وهذا الذي حث أهل المنطقة على فتح العلاقات التجارية بينهم وبين شعوب أخرى.

"فقد ظهر التجار العرب منذ النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، وزاد نفوذهم بعد غزو المرابطين لمملكة غانا عام (٤٧٩هـ) (١٠٧٧م) ٣، وكانت تلك الفترة المعاصرة للعصور الوسطى في أوروبا، هي فترة ازدهار لطرق التجارة الصحراوية.

وقد اشتهرت من هذه الطرق أربعة، وهي:

^١ انظر: علي أبو بكر، الدكتور: الثقافة العربية في نيجيريا، الطبعة الأولى ١٩٧٢ م ص ١٥.

^٢ انظر: ملحق الصور، الصورة رقم ٤.

^٣ مملكة غانا التي زارها وهب بن منبه عام ١٣٧هـ، والفزاري عام ٢٠٠هـ، وسماها: أرض الذهب، وقد كانت دولة قوية، نشأت على أساس تجاري اقتصادي متين؛ مما شجع المسلمين على ولوجها، حتى كانوا سبباً في إسلام كثير من ملوكها وأهلها، وصار أكثر سلاطينها ووزرائها مسلمين، وامتدت مملكة غانا الإسلامية إلى القرن الخامس الهجري، حتى ورثتها دولة المرابطين في الشمال الإفريقي، التي حفظ الله بها الأندلس للمسلمين أربعة قرون، اشتهرت بالذهب والحديد، وصناعة الأسلحة والتجارة المنظمة، وأظهر أهلها قدرتهم على تدبير شؤونهم، حتى شهد بعض منصفى الغرب بأن حضارة تلك البلاد في العصور الوسطى لم تكن دون حضارة البيض.

كان من فضل مملكة غانا تمهيداً لقيام مالك تالية؛ كمملكة مالي الممتدة عبر قرون أربعة، التي اضطلعت بدور عظيم في نشر الإسلام، والتي وجد في مدينة واحدة من مدنها (مدينة جني): ٤٢٠٠ عالم مسلم.

ثم قامت على تركتها مملكة صنغاي، التي امتدت إلى القرن الثاني عشر الهجري؛ حيث استلم الزمام (الفولانيون) أنصار دعوة الشيخ عثمان بن فودي، الذي أقام دولة سوكوتو، التي قضى عليها الاحتلال البريطاني أوائل القرن الرابع عشر الهجري، عام ١٩٠٠م.

من تونس وليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد، ومن تونس إلى بلاد الهوسا، ومن الجزائر إلى أواسط نهر النيجر، وكذلك من المغرب إلى أعالي نهر النيجر وحوض نهر السنغال.

وكان قوام هذه التجارة مقايضة الملح بالذهب الذي يكثر وجوده بين نهر النيجر والسنغال، كما كانت التجارة تشمل جلب الرقيق وغيره من السلع، واتخذ التجار من هذه الطرق وفروعها منافذ لتجارته، وكان التجار يجمعون بين دور التاجر والعالم أو الداعي في بث العقيدة الإسلامية، ونتيجة لهذه الصلات السلمية اتسع نطاق التجارة، وزادت المهجرة، فاتصل التجار بالوطنيين، وخالطوهم السكن، وكثرت المصاهرة، ومهد ذلك كله لانتشار الإسلام بين الشعوب التي تنتشر في هذا الإقليم، مثل قبائل: الولوف، والتكورو، والسونكة، والديوله، والصونغني، والماندنغو، والفلاتة، والهوسا، والكانوري، وغيرهم.

المرحلة الثانية: ما بين القرن الحادي عشر والسابع عشر الميلادي ١٠٥٠ - ١٧٥٠ م.

توقف النشاط الإسلامي قليلاً في أحريات القرن العاشر الميلادي بسبب ثورات البربر وحروب الروم وفتن ملوك المغرب، ولكنه في القرن الحادي عشر استأنف نشاطه، ودخلت في حظيرته قبائل الصحراء، وأسست في السودان ممالك ومراكز كبيرة كان لها أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية^١، وكان مجال هذا النشاط الرئيسي غرب إفريقيا والسودان الغربي بين الزنوج.

وقد دخل الناس ودخل الدين الحنيف إلى كانم عن طريق مصر.

المرحلة الثالثة: تمتد من عام ١٧٥٠ - ١٩٠١ م.

وفي هذه المرحلة نهض الإسلام نهضة قوية على أيدي مشايخ الطرق الصوفية؛ وذلك في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ويمتاز هذا الدور بظهور عدد كبير من المصلحين الدينيين من الجنس الإفريقي، منهم: الشيخ عثمان بن فودي، والشيخ محمد الأمين الكانمي، والشيخ الحاج عمر بن إدريس، والشيخ محمد المهدي، وغيرهم.

ومن أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام في إفريقيا ما يأتي:

١ - عدالة الإسلام ومساواته بين الناس، وبُغضه للتفرقة العنصرية.

٢ - بساطة تعاليم الإسلام، وسهولة فهمه، ويسر الدعوة إليه.

^١ محمد موسى البر: الإسلام والمسلمون في إفريقيا ص ٤.

٣- نشر الدعوة الإسلامية لا يسخر لمصالح فئة معينة، أو يحقق مكاسب لكتل سياسية متصارعة، وليست للدعوة الإسلامية أهداف غير انتشار الإسلام، وهذا يخالف تمامًا ما تقوم به بعثات التنصير؛ من حماية للمصالح الاستعمارية، وخدمة للمستثمرين، وتجارة الرقيق مع ممارسة جميع أنواع القسوة في نقل الملايين من الإفريقيين إلى العالم الجديد طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٤- يقدم الإسلام للمسلمين قوة الشعور بالوحدة، ويؤلف بين قلوب أبنائه، وهذا منبعث من عقيدة التوحيد، وأحكام صلة الفرد بالله؛ فالوثنى الإفريقي ينتقل بعد إسلامه إلى أحضان الجماعة المسلمة، ويصبح عضوًا في مجتمع متماسك يشعُر الفرد فيه بذاته وكرامته، وفي هذا انتقال حضاري من البدائية والصراع القبلي إلى الوحدة والتكتل والعمل الجماعي في صالح القبيلة والأمة، وليس هناك تمييز بين الألوان.

٥- الجوار الجغرافي واتصال الرقعة الأرضية: تلتحم إفريقيا بآسيا (مقر الوحي) في أقصى الجزء الشمالي شرقي إفريقيا، من خلال برزخ السويس، ويمثل هذا الالتحام المعبر البري الوحيد بين القارتين، ومن خلاله عبرت الهجرات من آسيا إلى إفريقيا، واتجهت إلى شمال وشرق القارة الإفريقية ١.

ولما جاء الإسلام ودان به كثير من أقطار نيجيريا عمل أمراؤها وملوكها بالنظام الإسلامي، وكان للعلماء والفقهاء دور عظيم في تبين أحكام الله ورسوله فيما يصدر للناس في حياتهم الفردية والاجتماعية، وعلى كل إقليم أو قطرٍ إسلاميٍّ ملك أو سلطان يحمل لقبًا معينًا، مثل: "الماي" لأهل بنو، و"المنسا" لأهل مالي، و"الزا و"السن" و"أسكيا" لأهل سنغاي، و"سركي" لأهل هوسا، و"ببا أديني" لأهل يوروبا.

وأكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالمًا فقيهًا اتخذ أحد العلماء البارزين وزيرًا يدير له الدولة على وفق الشريعة، ولا بد من هيئةٍ شوريةٍ على شكل "لجنة التقوى"، من كبار العلماء والفقهاء، على ما سنَّ الخليفان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من الأنظمة؛ لذلك تلقب أكثرهم بأمير المؤمنين، وأول من تلقب بأمير المؤمنين في هذه المنطقة هو محمد أسكيا الأكبر، ثم الشيخ عثمان بن فودي، وخلفاؤه، وكان له أمراءٌ في الأقاليم على نحو ما للخلفاء من

^١ انظر: المرجع السابق ص ٢.

الولاية والحكام والأمراء، ولكل أميرٍ في إقليمه وزير الدولة، وقائد الجنود، والإمام الأكبر للصلاة، وقاضي القضاة، وكبار العلماء، وكبار الجنود، وعمال الولايات ١.

^١ داود عبدالقادر إيليغا: الأنظمة التعليمية الوافدة إلى غرب إفريقيا ص ٥.

المبحث الثالث: الحركة الإصلاحية للشيخ عثمان بن فودي (دولة سكوتو):

شهد القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حركة إصلاحية دينية وثقافية واجتماعية وسياسية كبرى، شملت منطقة واسعة من غرب إفريقيا جنوب الصحراء، وتوجت في النهاية بإقامة دولة إسلامية على يد مؤسسها وزعيمها الروحي الشيخ الداعية المجدد عثمان بن محمد فودي الفلاتي ٢ رحمه الله.

ولد الشيخ عثمان بن فودي في بلدة "طغل" (Degel) على أطراف إقليم "غوبر" (Gobir) إحدى ولايات الهوسا بشمال نيجيريا سنة ١١٦٨ هجرية . ١٧٥٤ ميلادية، ووالده محمد الفلاتي الملقب بفودي ٤، وكان معلم القرآن والحديث في قريته.

وبعد أن أكمل ابن فودي حفظ القرآن الكريم على يد والده، شرع ينتقل من عالم إلى آخر، يتعلم ويتفقه حتى أصبح عالمًا، ومن أشهر من تلمذ عنهم من العلماء الشيخ جبريل بن عمر، وقال عنه تلميذه ابن فودي:

إن قيل في بحسن الظن ما قيلًا = فموجة أنا من أمواج جبريلا

ولم يكن هذا الشيخ الذي استطاع أن يبني دولة دامت مدة قرن كامل (١٨٠٤ . ١٩٠٣ م)، في حقيقة أمره، إلا رجلاً تشبع بثقافة إسلامية واسعة، ومنح من الصفات الخلقية، والمواهب العقلية، والشجاعة في الرأي، والصدق في الإيمان، والإخلاص في العمل، وحسن الموعدة، ما هياه الله تعالى به، ليقوم بدور المصلح الدّيني المجاهد في سبيل نشر الدّين، ومقاومة الكفر والوثنية، وقمع

^١ الودغيري: عبدعلي، الدكتور، رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر: ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدد عثمان بن فودي، بحث غير مطبوع. ص ١.

^٢ دخل الفولانيون الإسلام على أيدي المرابطين في القرن الخامس الهجري على قول، فتحمسوا له واستعلوا به، وكان موطنهم الأصلي حوض السنغال، ولكنهم انتشروا في قلب إفريقيا من السنغال إلى تشاد إلى قلب وغرب إفريقيا في أربع هجرات شهيرة، تفرعت خلالها هذه القبيلة الضخمة إلى عدة فروع، ولكن أهم هذه الفروع وأكثرها أثرًا في نشر الدعوة الإسلامية وعودة النهضة الإسلامية للقلب الإفريقي، هي هجرة الفولانيين إلى نيجيريا؛ انظر: شريف عبدالعزيز: الإمام المجاهد عثمان بن فودي، بحث غير مطبوع ص ٤.

^٣ انظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م ٢٧٨/١٥.

^٤ ويعني الفقيه باللغة الفلاتية.

البدع والخرافات، وتخليص المسلمين - من بني قومه - مما كانوا عليه من الانحطاط في الأخلاق والسلوك، وسوء الاعتقاد، والجهل بحقائق الشرع، وشدة الفرقة والانقسام ١.

يقول عنه ابنه محمد بللو أمير المؤمنين في إنفاق الميسور ٢: إنه علّم العلماء، ورافع لواء الدين، أحيا السنّة، وأمات البدعة، ونشر العلوم، وكشف الغموم، بمر علمه العقول، جمع بين الحقيقة والشرعية، فسر القرآن سنين عديدة... متعبداً ناسكاً، تصدر للتدريس وبث العلم، فملاً القطر المغربي معارف وتلاميذ.

وما كان الشيخ عثمان بن فودي يهيب نفسه لملك أو سلطان، ولكنه نذر نفسه وبوضوح من أول أيامه للعلم والتعليم بعد أن حفظ القرآن، وتعلم الحديث والفقه، واطلع على مؤلفات الكثيرين من كتب السلف، واحتك بالكثيرين من علماء بلده وعصره مباشرة وفكرًا، وما وجد من المخطوطات والمطبوعات في نيجيريا من تأليف للشيخ عثمان بن فودي، وأخيه الشيخ عبدالله، وابنه محمد بللو، وابنته الشاعرة أسماء أكثر من أربعمئة مؤلف، وأغلبها الغالب باللغة العربية، وبعضها بلغة الفلاني، وبعضها بلغة الهوسا ليؤكد ذلك ٣.

ومدار تعاليم الشيخ رضي الله عنه على خمسة أقسام:

القسم الأول: ما فرضت به الشريعة، وهي الأصول والفروع الظاهرة والباطنة.

القسم الثاني: في الحث على اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القسم الثالث: في رد الأوهام التي توهمها الطلبة (وهؤلاء قد شغلوا بعلم الكلام)، فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون، فهو كافر، وأشاعوا أن عوام المسلمين لا

^١ وقد وصل خبر هذه الدعوة إلى السلطان المغربي المولى سليمان، وبلغه ما عليه أحوال الشيخ عثمان من الورع والصلاح والتفاني في الجهاد، ومحاربة البدع، فأبدى تجاوبه معه، وإعجابه بحركته، وكتب في هذا الشأن رسالتين سنة ١٢٢٥ هـ، وجه الأولى باسم أمير آهير (الواقعة حاليًا في النيجر)، وهو الأمير محمد الباقر، والثانية باسم الشيخ عثمان يبارك له فيها عمله، ويتشوق لرؤيته ويدعو له بالنصر والتوفيق.

^٢ انظر: محمد بللو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٦٦.

^٣ ويذكر الوزير غطاط بن ليما في كتابه "بسط الفوائد" أن من طبقة العلماء من طبقة الشيخ آنذاك كان حوالي ١٠٥ عالم، وأن من الطبقة التي تليهم كان هناك (١٧٥)، ومن طبقته هو (١٤٥)، هذا خلاف ما لم يذكره من الشيوخ والطلبة والصلحاء.

تؤكل ذبائحهم، ولا يناكحون، مخافة أن يكونوا لم يعرفوا التوحيد، وابتلاهم الله بانتهاك حرمة خاصة أيضًا، فتناولوا فقهاء وقتهم من أهل العلم والدين، ومن هم على سبيل المهتمدين.

القسم الرابع: في إخماد البدع الشيطانية ورد العوائد الرديئة.

القسم الخامس: في بث العلوم الشرعية، وتحديد المشكلات فيها، والإفادة بالغرائب النواذر في العلوم ١.

وهكذا كان الشيخ يسعى بين قومه ليقوم عقيدتهم وسلوكهم، ولم يمضِ به وقت كبير في جو مثقل بحركة علمية كبيرة وحركة اقتصادية واجتماعية عامة، حتى كثر أتباعه وأحبابه، وحتى أثار ذلك اهتمام أولي الأمر من أهل السلطان ومن تبعهم، بما في ذلك بعض العلماء، الذين سماهم الشيخ علماء السوء؛ لضلوعهم في ضلالة الجهلة وفساد الحكام، ولم يكن غريبًا في تلك الظروف أن تكون مواجهة مع السلطة وأتباعها، يمتحن فيها الشيخ وجماعته بعد أن حاولوا معه أسلحة الترغيب والتودد، ثم أسلحة التهديد والإرهاب.

يذكر أمير المؤمنين محمد بللو أن أعداءهم أجمعوا كيدهم على نصب القتال بينهم وبين الشيخ، لا يشكون في أن الدولة لهم؛ لما يرون من ضعف أتباعه من المقاتلة، فاجتمع أمرهم على زجر الدعاة إلى الله، ومنعهم من الوعظ، وأمر كل واحد أن يرجع إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده عليه، فلم يرعنا إلا إنذار أمير غوبر "نافات" لثلاثة أمور، وهي كالتالي:

١ - لم يرضَ لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده.

٢ - لم يرضَ لأحد إلا وارثه من آباءه ومن لم يرث الإسلام، فليعد إلى ما وجد عليه آباءه.

٣ - وألا يتعمم أحد بعد اليوم، ولا تضرب امرأة بخمارها على جبينها.

وهذا إنذار في الأسواق، ويشاء ربك أن يموت "نافات" أمير غوبر بعد ذلك بقليل، لكن خلفه ابنه، وغزا قرية من قرى الإسلام على حين غفلة من فقهاء وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون، ونهبوا أموالهم، وأسروا ذراريهم، وأخذوا يفتشون الكتب والمصاحف، ويحتطبون الألواح فيوقدون بها، ويستهنئون بأهل الإسلام.

^١ محمد بللو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد النكروور ص ٧٢.

تلك كانت بداية تحول الحركة من دعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة إلى جماعة ترى الهجرة بدورها واجباً، فكانت رسالة الشيخ لإخوانه وأتباعه في كتابه "بيان وجوب الهجرة"، ولكن ذلك كله لم يحم الشيخ وأتباعه من البغي والعدوان، فأصبح الجهاد فرض عين على الشيخ وأتباعه، وتتابع انتصارات الشيخ التي عدها معاصروه وأتباعه من الخوارق إلى أن تأسست الخلافة العثمانية السكتية.

يقول "محمد بللو" عن موقفهم من حكام ديارهم: إنه لما علمنا انقطاع حبال الأمانة بيننا وبينهم، وقد أعانهم على عداوتنا جميع من كان على مشاركتهم من السودانيين والطورق، ولم يبق لنا ملاذ وملجأ في ملوك هذه البلاد؛ لتضاههم على عداوتنا، وتعاونهم على ذلك رؤماً منهم استئصلنا - اجتمعنا وتشاورنا في أمرنا، وقلنا: إنه لا يتأتى للناس أن يكونوا هملاً من غير وال، فبايعنا الشيخ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، فبايع هو على الكتاب والسنة ١.

هكذا أصبح الشيخ أميراً للمؤمنين، وقاد جهاده المظفر الذي كان ولا يزال له الأثر البالغ في تاريخ الإسلام عامة، وفي تاريخ بلاد الهوسا واليوربا، وما أصبح فيما بعد نيجيريا الفدرالية التي نعرفها اليوم، والتي يشكل المسلمون أغليتها الغالبة، وقد كان الشيخ وأتباعه يتبعون في دعوتهم خطى الرسول صلى الله عليه وسلم، وخطى الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله، بوعي عميق، ونية صادقة، ومعرفة دقيقة لتفاصيل المسيرة النبوية، والخلافة الإسلامية، وبتوفيق من الله عظيم ٢.

في ذات الوقت أخذ الشيخ وجماعته يترجمون علمهم وأفكارهم إلى واقع ملموس، فقامت الخلافة الإسلامية العثمانية السكتية كدولة إسلامية بكل ما عرف عن الدولة الإسلامية من نظم أساسية؛ فكانت الخلافة القائمة على البيعة، وكان الوزراء والأمراء والعمال والقضاة والمحتسبون، ولم يرضَ الشيخ وجماعته أن يرتحلوا لأية عاصمة من عواصم حكام الهوسا السابقين، فقد كانت بالنسبة لهم دار كفر، وآثروا أن يشيدوا عاصمتهم، فأسسوا مدينة سكتو ٣، وهي عاصمة الولاية الغربية من ولايات شمال نيجيريا الآن، ولحماية حاضرة الخلافة الفتية أقيم رباط على مقربة منها في (ورنو)،

^١ المصدر السابق ص ١٠٠.

^٢ الودغيري: عبدالعلي، الدكتور، رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر: ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدد عثمان بن فودي، بحث غير مطبوع. ص ٤.

^٣ ومن شروح تلك التسمية أنها سميت سكتو لأنها (سكَّت الأعداء سكًّا)، قال لي ذلك الشيخ أمين غوني، ممد (انشاروا) جمهورية نيجر في رحلتي معه إلى الحج عام ٢٠٠٦م، وقد استفدت منه كثيراً رحمه الله.

وكان أول حاكم لورنو محمد بللو بن الشيخ عثمان وخليفته، ولقد توفي الإمام المجاهد أمير المؤمنين عثمان بن فودي رحمه الله سنة ١٢٣٣ هـ - ١٨١٨ م.

ولا تزال سكتو عاصمة الخلافة العثمانية عاصمة للإقليم المسمى عليها، كما أن حفيد الشيخ عثمان يقطن هناك، وكذلك الوزير، ويعرف خليفة الشيخ الآن بعد أن سقطت الخلافة على أيدي البريطانيين عام ١٩٠٣ باسم (سركن مسلمي)؛ أي: رأس المسلمين، ولا يزال يتمتع بمكانة كبيرة في نيجيريا كرمز لوحدة المسلمين ومكانتهم، وهو بهذه الصورة صاحب المكانة الأولى بين المسلمين في كل نيجيريا على اختلاف ولاياتها وقبائلها، ولا تزال بيوت الإمارة قائمة، والأمراء يتسلسلون إلى بداية الخلافة العثمانية السكتية، ومرد ذلك أن البريطانيين الذين أفلحوا في إسقاط الخلافة وقتل الخليفة الطاهر، وقد استشهد في (برمي) وهو في سبيله شرقاً للاتصال بالسودان، لم يفلحوا في طمس معالمها.

وتبلغ نسبة المسلمين في نيجيريا إلى ٧٥%، وتشمل قبائل الشمال كلها سوى نزر يسير تأثر بالإرساليات التنصيرية وما تقدمه، وبالاستعمار الصليبي ومغرياته ١.

وبالرغم من عدم قيام الإحصائيات الدقيقة من الحكومة يعتبر آخرون أن نسبة المسلمين أكثر من ٦٠%، و٣٥% مسيحيون، والبقية من الديانات الإفريقية ٢.

تعمق الإسلام في الشمال بصفة عميقة يصعب التمييز بين الرجل الهوساوي والإسلام؛ لأنه يعتبر أن كل شمالي هوساوي مسلم.

وفي أواخر القرن التاسع الهجري أصبحت المسيحية قوية في الجنوب، شرقيه وغربيه، انحاز الجنوب الغربي إلى المسيحية الإنجليزية، والشرق إلى المسيحية الكاثوليكية الرومانية.

ثم إن الإسلام انقسم إلى طوائف وفرق، كما الحال في جميع الأقطار الإسلامية، فيوجد فيها الطرق الصوفية؛ كالتيجانية والقادرية، ويوجد طوائف أخرى؛ كالشيعة، والسلفية، وغير ذلك.

ويلاحظ أن سلطان الأمراء قبل الاستعمار كان قوياً وفعالاً؛ إذ يملكون القدرة في تدبير شؤون البلاد، ويخضع لهم رقاب الجميع، ولا يوجد عندهم مخالف في السر والعلن؛ فالإمارة تعتبر رمزاً

^١ انظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي. ج ١٥/١٦٣.

^٢ انظر: توفيق حسين: جمهورية نيجيريا. ص ٤٤.

للإسلام، وشعارًا للدين، كما يشعر كل المواطنين بوجوب الخضوع له، والانقياد لأوامر؛ ولهذا وحتى بعد وجود الاستعمار استمر الناس بالانقياد لهم، وأعطى لهم كل فرد وجوب الطاعة؛ فالأمراء لهم أهمية كبيرة في نفوس الشعب، ولا زالت منزلتهم وسلطانهم كذلك.

وقد جعل لهم الدستور ١٣% من مصادر الموارد لكل المناطق المحلية التي يمتد سلطانهم إليها، وكذلك منح لهم الحق في إدارة كل الشؤون الدينية؛ كالمساجد والمدارس الإسلامية، وكل ما له صلة بالدين، وإن كان الدستور اعترف بهم فإنه لا يعطيهم نفوذ وسلطان يتحكمون من خلاله بمصادر الدولة، كما يلاحظ أن رئيس الدولة والحاكم بل ورئيس الحكومة المحلية أعلى منه منزلة، وأصبحت شخصية الأمير هي المحور الرئيسي إذا كان رجلاً صالحًا وطيبًا وحكيمًا، فإنه يستفيد من الولاية بقدر ما يستفيد منها حاكم الولاية، وإن كان عكس ذلك فقد لا يلاحظ له وجود.

من أهم الأمراء: أمير كانو، وأمير سوكتو، وأمير غامباري، وأمير إورن، وأمير بورنو، وأمير إيرا، وأمير زاريا، وأمير قوندو ١.

المبحث الرابع: دخول الأوربيين المستعمرين:

وما من قارة من قارات العالم حفت بها وتاريخها الأكاذيب مثل إفريقيا، وللأسف الشديد فإن معلومات الناس في مختلف أنحاء العالم عن قارة إفريقيا كانت عن طريق تلك الأكاذيب التي حاکتها الدول الاستعمارية الأوربية ٢.

وحتى سنة ١٨٠٠م ظلت مناطق إفريقيا السوداء مجهولة بالنسبة للجغرافيين الأوربيين، ولم تتوفر لديهم معلومات كافية لمدة طويلة، وسبب ذلك هي الملاريا (Malaria)؛ لأن في كل عشرة من الأوربيين الذين ينزلون بسواحل غرب إفريقيا، فمن المؤكد أن ستة منهم على الأقل سيموتون بالملاريا قبل نهاية العام ٣، حتى شاع تسمية مناطق غرب إفريقيا بـ: "مقبرة الرجل الأبيض"، وكان البرتغاليون أول الأوربيين الذين وصلوا إلى نيجيريا، وأنشؤوا مركزًا تجاريًا قرب بنين، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، ثم قاموا بتطوير تجارة الرقيق، بالاشتراك مع زعماء القبائل الإفريقية، وفيما

^١ انظر توفيق حسين: جمهورية نيجيريا ص ٦٢.

^٢ انظر: كولن ماكيدي، ترجمة مختار السويدي، أطلس تاريخ إفريقيا ص ٨.

^٣ انظر: المصدر نفسه ص ١٥٧.

بعد كان البريطانيون والهولنديون وغيرهم من التجار الأوروبيين يتنافسون في هذه التجارة، وبنهاية القرن الثامن عشر الميلادي أصبح البريطانيون أبرز تجار الرقيق في الساحل النيجيري^١.

ومن أهم البعثات الاستكشافية التي قام بها الأوروبيون في تلك الفترة بقصد التوغل في المناطق الإفريقية الداخلية، تلك الرحلة التي قام بها مونجوبارك Mungo Park، الذي غادر إنجلترا سنة ١٧٩٥ قاصداً استكشاف مناطق نهر النيجر^٢.

أرسل البريطانيون عيونهم على فترات من الزمن ليستكشفوا أسرار المنطقة، ومن أبرز هؤلاء العيون: (كلابرتون) Clapperton و(دينهام) Denham و(أدني) Oudney، وقد زار هؤلاء منطقة (برنو)، و(كانو)، و(سوكوتو) عدة مرات بعد الرحلات الاستكشافية التي قام بها (مونجو بارك) Mungo park قبلهم، وفعلاً حصلوا على بُغيتهم، فبعد مدة من الزمن مشوية بالمر والمكائد واختلاق اتفاقيات تجارية وسياسية، قام الإنجليز بحملة شرسة على دولة (سوكوتو) الإسلامية، وقاومهم جنود الإسلام، ولكن لما لم تكن المقاومة من الإمارات الإسلامية موحدة لم تجد شيئاً، وسقطت الإمارات الإسلامية على يد الإنجليز واحدة تلو الأخرى، وأخيراً سقطت العاصمة (سوكوتو) عام ١٩٠٣م^٣.

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أنشأت بريطانيا محميات في أجزاء من جنوب نيجيريا، وظلت شركة تجارية بريطانية تسمى شركة النيجر الملكية تحكم معظم أجزاء شمال نيجيريا حتى عام ١٩٠٠م، وفي تلك السنة حولت بريطانيا تلك المنطقة إلى محمية تسمى محمية شمال نيجيريا، وفي عام 1906م أصبح الجنوب النيجيري بما فيه لاجوس مستعمرة ومحمية جنوبي نيجيريا، ولقد حارب النيجيريون في كل مناطق الاستعمار الإنجليزي، وبخاصة في المناطق الشمالية، ولكن الإنجليز قاومهم، وفي عام ١٩١٤م وحدت بريطانيا كلاً من شمال نيجيريا وجنوبه في وحدة واحدة سميت محمية اتحاد نيجيريا^٤.

^١ الموسوعة العربية العالمية (نيجيريا).

^٢ انظر: كولين: أطلس تاريخ إفريقيا ص ١٥٨.

^٣ انظر: محمد بانجيدا محمد، الدكتور: الإسلام والمسلمون في نيجيريا، مجلة البيان (٢٣٨ عددًا) تصدر عن المنتدى الإسلامي.

^٤ انظر: الموسوعة العربية العالمية Global Arabic Encyclopedia (نيجيريا).

تقاسمت الدول الاستعمارية إفريقيا في مؤتمرها الذي عقدته في برلين عام ١٢٨٢هـ / ١٨٨٤م، وتعاهدت فيه على احتلال العالم الإسلامي، ونصت قرارات المؤتمر على أنه لا يكفي إعلان الحماية على بلد ما دون احتلاله فعلياً، وكان ذلك واقعاً عانت منه القارة كغيرها دهرًا. ولعل الإنجليز لم يفتقروا إلى نية إبادة الأفارقة في بلدانهم، أسوة بما فعلوه بالهنود الحمر في أمريكا لولا لطف الله بهذه القارة^١.

^١ ومن الطريف أن الصحفي الألماني (يواخيم برناو) يرى أن العائق عن استيطان الإنجليز القارة، وإبادة أهلها: آفتا إفريقيا: الملاريا، وذبابة التسي تسي.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإني أستخلص من هذا البحث ما يأتي:

- إن دخول الإسلام في نيجيريا قديم؛ أي: منذ فتوحات إفريقيا على يد عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين للهجرة ٤٦هـ.

- إن الإسلام في نيجيريا لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بواسطة أناس كانوا مثلاً أعلى وقدوة حسنة؛ ولذلك أصبحت قلوب الجماهير متعلقة بكل ما هو إسلامي.

- إن الحركة الإصلاحية الفودية هي التي أعادت للمسلمين في تلك المنطقة روح الإخاء، وربطتهم تحت راية واحدة، وأيقظتهم من سباتهم بعد فترة الركون.

بناءً على هذه النتائج يوصي الباحث بالآتي:

- أدعو الجيل الجديد من الباحثين لبذل المزيد من الجهود لاستخراج كثير من الكنوز التي تركها الأسلاف، حتى يكتب صفحة جديدة من تاريخ هذه المنطقة، غير المزورة المتداولة التي أشاءها المستعمر وقررها في مناهج التعليم.

- أدعو إلى إنشاء لقاءات بين علماء المنطقة، ولو على نطاق الإنترنت، لنفض الغبار عن تاريخ المنطقة.

وما كان من صواب فبتوفيق من الله تبارك وتعالى، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، فأستغفر الله العليّ العظيم وأتوب إليه، والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن هشام: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد: السيرة النبوية: الناشر دار الجيل سنة ١٤١١هـ.
٣. الوري: آدم عبدالله: الإسلام في نيجيريا.
٤. توفيق حسين أبو بكر: جمهورية النيجيرية، بحث غير منشور.
٥. شريف عبدالعزيز: الإمام المجاهد عثمان بن فودي، بحث غير مطبوع.
٦. شيخ عثمان كبر، الدكتور: الشعر الصوفي في نيجيريا.
٧. علي أبو بكر، الدكتور: الثقافة العربية في نيجيريا، الطبعة الأولى ١٩٧٢ م.
٨. المباركفوري صفي الرحمن: الرحيق المختوم.
٩. محمد بابنجيدا محمد الدكتور: الإسلام والمسلمون في نيجيريا، مجلة البيان (٢٣٨) تصدر عن المنتدى الإسلامي.
١٠. محمد بللو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، طبع عام ١٣٨٢هـ - ١٩٦٤م.
١١. محمد موسى البر - جامعة القران الكريم والعلوم الإسلامية، الإسلام والمسلمون في إفريقيا، بحث غير مطبوع.
١٢. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.
١٣. مقابلة: الشيخ أمين غوني ممد (انشاروا) جمهورية نيجر في رحلتي معه إلى الحج عام ٢٠٠٦م.
١٤. الموسوعة العربية العالمية: عمل موسوعي ضخم، اعتمد في بعض أجزائه على النسخة الدولية من دائرة المعارف العالمية World Book International، شارك في إنجازه أكثر من ألف عالم، ومؤلف، و مترجم، ومحرر، ومراجع علمي ولغوي، ومخرج فني، ومستشار، ومؤسسة من جميع البلاد العربية.

١٥. داود عبدالقادر إيليغا، الأنظمة التعليمية الوافدة إلى غرب إفريقيا وآثارها على المجتمع، ورقة مقدمة إلى ملتقى الجامعات الإفريقية، تقيمه جامعة إفريقيا العالمية بالسودان يناير ٢٠٠٦م.
١٦. الودغيري: عبدالعلي، الدكتور، رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر: ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدد عثمان بن فودي، بحث غير مطبوع.
١٧. الودغيري الدكتور عبدالعلي، رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر: ملامح من التأثير المغربي في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدد عثمان بن فودي.
١٨. THE PENGUIN ATLAS OF AFRICAN HISTORY .BY COLIN MCEVEDY. كولين ماكيدي: الأطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

